

# دعوة إلى التعايش بين المذاهب الإسلامية

دعوة إلى التعايش بين المذاهب الإسلامية

الشيخ أحمد علي الصيفي

رئيس مركز الدعوة الإسلامية لأمريكا اللاتينية بالبرازيل

الحمد لله رب العالمين والصلوة والسلام على النبي الأمين وآل بيته وأصحابه الطاهرين الطيبين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

لقد كنت سعيدا جدا بدعوتكم لنا فضيلة العلامة محمد علي التسخيري للمؤتمر الدولي الرابع والعشرين للوحدة الإسلامية تحت عنوان (الأساليب الفكرية والعملية لتحقيق التقارب بين المذاهب الإسلامية ) 19-21 فبراير/شباط 2011 وبمشاركة كوكبة من علماء ومفكري العالم الإسلامي وذلك بمناسبة مولد الرسول الأعظم سيدنا محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وحفيده الإمام الصادق عليه السلام وأسبوع الوحدة الإسلامية. ونحن إذ نتقدم لمؤتركم بهذا البحث المتواضع تحت عنوان: (دعوة إلى التعايش بين المذاهب الإسلامية) راجين من الله تعالى أن يكتب له القبول والنفع في تحقيق أهداف مؤتركم وأن يتقبل منا ومنكم، ولكم منا ألف شكر ومحبة وتقدير، ودمتم في رعاية الله وحفظه، والله ولي التوفيق وال قادر عليه.

دعوة إلى التعايش بين المذاهب الإسلامية

انطلاقاً من أهمية الحوار بين أتباع الأديان والحضارات والثقافات والمذاهب الإسلامية المختلفة ينبغي على عقلاه العالم مسابقة الزمان في تجديد الحقل الديني الإسلامي لمواكبة تغيرات الزمان والمكان ولحفظ المصالح المرسلة للناس، محارата لمستحدثات هذا العصر، وهذا الأمر هو من صميم مقاصد ديننا الحنيف الذي حمل بين جوانحه قيما وأهدافا وقوانيننا عدة مهمات، عملت على نشره في بلاد العالم أجمع شرقه وغربه، ولعل من أشهر هذه القيم والقوانين: قيم الحوار والتسامح واللين.. وهناك العشرات من الآيات والأحاديث النبوية الشريفة التي تشهد على ذلك منها قوله تعالى: "خُذْ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ" (99) الأعراف، وقوله تعالى: ( ادْعُ إِلَى سَبِيلِ

رَبِّكَ بِالْحَكْمَةِ وَالْأُمَّةِ وَعِظَةَ الْحَسَنَةِ وَجَادَ لِهُمْ بِالْحَسَنَاتِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ صَلَّى عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهُدِّدينَ (النحل:125) قوله تعالى: ((وَلَا تَسْبِّحُوا بِالذِّينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسْبِّحُوا بِاللَّهِ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ)) الانعام، الآية 17. وهذا فيما يتعلق بالحوار والتعايش بين أبناء الديانات السماوية عامة، بما نحن المسلمين، قرآناً واحداً، وربنا واحداً، ونبينا واحداً. كيف يعقل أن نخاصم بعضنا بعضاً ونحارب بعضنا بعضاً !!! ورسالة الإسلام تدعو إلى التعايش الإيجابي بين الشعوب والبشر جميعاً بصرف النظر عن ألوانهم ومعتقداتهم وأوطانهم، روى الإمام البهقي، من حديث جابر رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، خطب في خطبة الوداع، في أوسط أيام التشريق، فقال: "يا أيها الناس: إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر إلا بالتفوّق".

الفضل إذاً يأتي بالإيمان بالله تعالى وحده وتقواه عز وجل كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، والمؤمن أخ المؤمن قال تعالى: ((إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَإِنْ أَخْوَوْيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) (الحجرات:10). ومن هذا المبدأ فإن كل من آمن بالله ربها وبمحمد صلى الله عليه وآله وسلم) رسولاً وبالقرآن الكريم كتاباً فهو أخ لي بالدين والعقيدة وله علي حقوقه ولها علي حقوقه، وإن سبحانه وتعالى وصاني به ووصاه بي وجعل بيننا هذه الرابطة القوية، رابطة الإيمان ورابطة الأخوة. ورسولنا الكريم أقام الدليل القطع على حقيقة الأخوة الإيمانية وتقديمها على كل أمر من الأمور الأخرى.. فها هو رسول الله يؤاخى بين المهاجرين والأنصار.. وبين الأوس والخرج.. وأخذ ينمي هذه الأخوة ويدعمها بأقوال وأفعال منه تؤكد هذه الحقيقة الغالية ((لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه)) [مسلم (45)] قوله: ((مثل المؤمنين في توادهم وترحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكت منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى)) [مسلم (2586)]. إلى غير ذلك من الأحاديث التي تقوى هذه الرابطة..

والأخوة هي: التي عقد الله سبحانه وتعالى لواءها، وتدخل لتحقيقها بين المؤمنين، لأهميتها في رفع لواء الإسلام وحمل الأمانة التي أودعها جل شأنه في هذه الأمة ولدى أبنائها البررة: ((وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) (الأفال:63).

ثالثاً: حقوق الأخوة في الله عز وجل وهي حقوقاً ينبغي مراعاتها بين الإخوة، لأنهم بذلك يعبدون عن جوهرها التي أمرنا الله سبحانه وتعالى بالتمسك بها ومراعاتها، لتكون الأخوة انعكاساً حقيقياً لإيمان صادق مرهف بالله عز وجل، ومستقبل مزهر لهذه الأمة.

من هذه الحقوق:

## ١- الولاء والنصرة والمحبة:

المحبة والنصرة: (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْ لَيْلَاءُ بَعْضٍ...) (الأنفال: من الآية 72).

(المؤمن للمؤمن كالبنيان يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا...) (متفق عليه).

## ٢- المواساة:

بدءاً من الكلمة الطيبة.. وانتهاءً ببذل الوقت والمال والمتاع، في سبيل استمرار أواصر الأخوة بين المؤمنين، ولنا في الأنصار الذين ناصروا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ومن هاجر معه إلى المدينة.. عبرة عظيمة، فقد قدّم الأنصار لإخوانهم المهاجرين المال والمأوى وكل ما يمكن تقديمها من متاع الدنيا:

(وَالَّذِينَ تَبَدَّوْا أُوا الدَّارَ وَالْأَيْمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَهُمْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمْمَّا أُوتُوا وَيُؤْتُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحًّا نَفْسًا فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) (الحشر: ٩).

## ٣- الرحمة:

فلا خير في أخوة لا تكون الرحمة جوهرها، ولا خير في إخوان لا تكون الرحمة أساس التعامل فيما بينهم: (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشْدَادُهُمْ عَلَى الْكُفَّارِ رُحْمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكْعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَهُلَّا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا...) (الفتح: من الآية ٢٩).

(مُثَلُّ المؤمنين في تَوَادُّهِمْ وتراحمهم وتعاطفهم، كمثل الجسد إذا اشتكت منه عضوٌ، تَداعى له سائر الجسد بالسهر والحمد) (متفق عليه).

أما بالنسبة لمعاملاتنا مع الديانات الأخرى فقد جاء في الحديث: "الناس بنو آدم وآدم من تراب" فديننا الإسلامي يعترف بوجود الاختلاف بين المجتمعات والأفراد والمعتقدات. كما يقر بشرعية ما للغير من وجهة نظر ذاتية قد تكون مخالفة للحق والصواب والمنطق والدين وذلك ما هو واضح في سورة الكافرون بقوله تعالى: (لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِي دِينِ) فمجتمعاتنا البشرية اليوم بحاجة إلى أن تتحاور؛ لأن الحوار في فلسفة الإسلام له أهمية فائقة؛ بل هو أول وآخر شيء في الدعوة إلى طريق الخير والفلح والهداية؛ سيما إذا كان الهدف منه هو إيصال الحق إلى القلوب وتفكيك جيوب الخلاف والصراع والقتال والتناحر.. لذلك يبقى الحوار هو الأمل الوحيد الذي يمكن من خلاله أن نصل إلى شاطئ الأمان والسلام والاستقرار، ومن يدعى غير ذلك فهو مخطئ.

إن المتمعن في خريطة العالم المعاصر، وما تعرفه الساحة الدولية من تصدعات وصراعات ظاهرة وباطنة؛

من جراء أحداث 11 سبتمبر الأليمة والتي ندينها بشدة وندين غيرها سواء مقدّمة بغلاف ديني أو سياسي أو ثقافي.. فالإرهاب لا له دين ولا ملة..! ورغم محاولات الرئيس الأمريكي السابق "ريتشارد نيكسون" و"صامويل هنتغتون" و"فرنسيس فوكويا ما" إلصاق التهم بدين الإسلام؛ معتبرينه في كتاباتهم دين الإرهاب والبربرية والوحشية والطالم والفاشية.. هؤلاء للأسف بنظرها تهم السلبية تجاه الإسلام والمسلمين يكونون قد وقّعوا للولايات المتحدة الأمريكية شيئاً على بياض استعملته كرصيد ضد محاربة ما تسميه بالإرهاب الإسلامي؛ بغية السيطرة على العالم أجمع وضبط إيقاعاته ونغماته وأنفاسه، وفرض نمط الحياة الغربية عليه؛ وتكريس التبعية الثقافية والحضارية والاقتصادية للمستضعفين في أرض الـ الواسعة.. وهو ما ينذر بالدخول في دوامة من المصراعات والحروب؛ ربما تمتد لأزمنة بعيدة وقد تشرع الأبواب أمام مسلسل إرها بي طويل المدى قد لا ينتهي بتقسيم العالم إلى طائفتين متقاتلين فحسب؛ بل قد ينتهي بتدمير هذا العالم على رؤوس أطراfe المتصارعة؛ وهذا يقودنا إلى التساؤل عن طبيعة الصورة التي رسمت في أذهان الغربيين عن الحضارة الإسلامية والعربية إبان الحادث؟ والجواب بسيط تجده في "الإسلاموفوبيا" التي تنتشر في البلاد الغربية بوتيرة متزايدة متمثلة في اليمين المتطرف الذي أصبح يضيق صدره لرؤيه محجبة تمر مرور الكرام عبر شوارعه وأزقته وأسواقه..؟؟؟ أو رؤية فقير مسلم لم يجد ثمن شفرة لحلاقة لحيته..؟؟؟ وفي هذه الأجواء المكفرة القاتمة بغيوم الكره والبغض والقتال والتناحر يأتي الحوار الإسلامي الإسلامي؛ ليس كشأننا لاهوتياً أو سجالاً فكريًا أو ترفاً معرفياً ونظرياً بل هو ضرورة وحاجة وواجب شرعي في عالم اليوم، يحدّم على العقلاة من المسلمين ومن المذاهب الإسلامية المتنوعة التفكير جدياً في بلورة مشروع إسلامي إنساني وتاريخي مشترك يعيش تحت كنفه جميع أبناء الله تعالى ومخلوقاته بغض النظر عن معتقداتهم وألوانهم وجنسياتهم؛ لأنه لم يعد مقبولاً أبداً في خضم هذه المصراعات الاكتفاء بشكليات وبروتوكولات بين الدول الإسلامية وزعمائهم وهيئة الرسمية والشعبية، أو بعلاقات تنسيب السفراء هنا وهناك؛ بل يجب أن يرقى هذا الحوار إلى مستوى أفضل بكثير؛ لما للمذاهب الإسلامية من تاريخ طويل وعربي امتد منذ عشرة قرون ونيف، التقوا مراراً في ساحات التاريخ ومفترقاً، لكنهم وللأسف لم يتعارفوا إلا قليلاً ولم يتصلوا إلا نادراً وظلوا إخوة غرباء في بيت أبيهم آدم ونبيهم محمد (صلى الله عليه وآله وسلم).... وفي هذا البيت النبوي الشريف، والمدرسة النبوية الكريمة.. مدرسة القرآن والحديث والشرف والعرفة والطهارة والعلم والفقه والحكمة والهدى.. تخرج منها وتتلمذ عليها أصحاب المذاهب الإسلامية المتنوعة وفي طليعتهم المذاهب الإسلامية الخمسة المعترضة عند أغلبية المسلمين في العالم ومنهم المذهب الإمامي الجعفري وهو من أشهر مذاهب الشيعة الإمامية، وأكثرها ظهوراً على الساحة الإسلامية، وينسب إلى الإمام: جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه). وكان قد غالب لفظ الشيعة بعد عصر الرسول محمد صلى الله عليه وسلم على من يوالى الإمام علياً وأهل بيته، ويعتقد بما ماته ووصايتها، ويظهر ذلك من خلال كلمات المؤرخين وأصحاب المقالات.

وقد ولد الإمام "جعفر الصادق" عام 80 للهجرة النبوية، وقيل إنه ولد عام 83، بالمدينة المنورة قبل ذلك التاريخ، وهي السنة التي ولد فيها تلميذه الإمام أبو حنيفة النعمان بن ثابت، فقيه العراق. وكان قد نشأ وترعرع بالمدينة المنورة، مكان مولده ومقر تربيته وتعلمه، حيث كانت آثار الصحابة (رضوان الله عليهم) بها قائمة، ويوجد فيها أكثر وأكبر التابعين.

وكان قد أخذ علمه عن كبار التابعين، كما أخذ عن الكثير من فقهاء عصره، وزاده غزارة علم وقدرة بما كسبه عن والده الإمام العالم الجليل، الملقب بالباقر بن زين العابدين، وما أخذه وتدارس فيه مع عمه الإمام زيد ابن علي. وبما أن الروايات التاريخية قد أثبتت أنه أدرك جده زين العابدين، فإنه لاشك كان قد أخذ عنه، وأنه استزاد من علمه ومعارفه، واستزاد من فضائله، مما جعله نبراس هدي وعلم، كما جعله إماماً به يقتدى، وعلى علمه يعتمد، وقد اشتهر بأنه من حافظ على رواية أهل البيت، كما اكتسب أيضاً من القاسم بن محمد حامل علامة عائشة أم المؤمنين (رضي الله عنها)، وممن لقي من فقهاء التابعين علماً وفضلاً، وبلا ريب فإنه لم يبلغ ذروة العلم والفضل، إلا لأنه اغترف من منبه حتى صار علماً يقتدى به، لذلك فقد خلّف من العلم ما يذكر به، وترك لمن خلفه من الذكر والمتأذل ما نحن أحوج إلى معرفته.

وتتحضر أدلة التشريع لدى فقهاء الإمامية الجعفريه ومحتمليها في أربعة مصادر، هي: القرآن الكريم، والسنّة النبوية، والإجماع، وفيه إجماع المعصومين لديهم، والعقل، والمقصود به: إعمالُ العالم المتبحر المختص عقله في البحث والتنقيب عن الدليل الشرعي، من موارد التشريع الثلاثة السابقة.. وليس من اليسير الحكم بأن علماء المذهب الجعفري كانت لهم مسائل فقهية أو فكرية اجتهادية خارجة عن ثوابت فقه الإمام جعفر وقواعده، ولا متعارضة كلياً مع كل ما عليه بقية الفرق الإسلامية، إلا ما ثبت من اجتهادات الإمام الصادق جعفر بن محمد، ومن مراجع البحث، نجد أن أغلب مسائل المذهب الإمامي الجعفري الفقهية الاجتهادية الثابتة: قريبة من منهاج فقه أهل السنّة، ولا يوجد بينها وبين المذاهب السنّية، والفرق الشيعية الأخرى، فوارق فقهية كبيرة، حيث لا يصل هذا الاختلاف إلى جوهر الدين والعقيدة الإسلامية.

وحيث إن الإمام جعفر كان قد أخذ عنه وتتلذم على يديه الإمام أبو حنيفة، والإمام مالك، وسفيان الثوري وسفيان بن عيينة، في أصح الروايات، فإنه مما لا شك فيه أن فقه الإمامين أبي حنيفة ومالك، صاحبي المذهبين المشهورين، قريبٌ من فقه المذهب الجعفري ومستنبط من مصادره، مما يعني ويؤكد وبكل جلاء ووضوح: أن مسألة التقرّب بين المذاهب، ليست ممكنة التنفيذ فحسب، بل إنها سهلة التحقيق، لاسيما في إطار هذه الاستراتيجية ومنطلقاتها، المرتكزة على أصول وثوابت إسلامية، وبما يؤكد أن المذهبية الإسلامية والتعددية الفكرية، إنما هي مزرعة لنماء الفكر الإسلامي، وأرضية مقبولة محمودة لخصوصية الفقه الإسلامي وتطوره وشيوعه، وتتجدد بتجدد الزمان والمكان، وثبات صلاحيته لمواجهة كل مستجدات حياة الإنسان المسلم وتطورها . وعلى مدار البحث، فإنه ينبغي الانتباه إلى أن الخلاف الفقهي ليس خلافاً

بين طرفين متباهين، سنة وشيعة، بل هو اختلاف بين مدارس فقهية، نهجُها واحد، كذلك فهو اختلاف علمي وليس بين المسلمين اليوم اختلاف علمي غير هذا..وعليه فلا يختلف مذهب الشيعة الإمامية عن غيره من المذاهب الاجتهدية الفقهية المنتشرة في ربوع العالم الإسلامي، إلا في أحكام ومسائل طنية، شملتها فروع الأحكام الفقهية وبعض المسائل الأصولية، غالبيها إن لم نقل كلها، من المسائل التي يمكن أن يكون الخلاف فيها أحياناً أوسع مدى بين مذاهب أهل السنة ذاتها، والتي على أساسها نشأت المذاهب وتفرعت مفاهيم التشريعات إلى فرق وطوائف، بينما هي في جوهرها الصحيح المنزلي من عند الله، لا تقبل التفريع ولا هي في كلياتها تقبل التجزؤ، لأنها نزلت محكمةً من رب واحد، وفرضت من حكيم حميد، عالم علیم. ومن ذلك المنطلق ومن مرجع مصدر التشريع الإسلامي الواحد وهو القرآن الكريم الذي جاء على لسان سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، فإن عوامل التقارب بين مجلل المذاهب وأسبابها سهلة المنال وغير مستبعدة التحقيق، كما أنها ليست مستعصية، ولا هي في حكم المستحيل، لأن المذاهب كلها تتفق وتلتقي في الجوهر والمقصد، وإن اختلفت في المظاهر والطراائق، مما يؤكد أن مسائل الاتفاق بين المذاهب الإسلامية، أكثر بكثير من مسائل الاختلاف، وأن روابط الوحدة أقوى وأمن.

وبالرجوع إلى مصادر مذهب الشيعة الجعفرية وفقهها، نجد الحكم في أغلب القضايا والمسائل الخلافية، يلتقي فيها مذهبهم مع مذهب آخر من المذاهب الإسلامية السنوية، سواء ثبت ذلك في جزء من المسألة، أو في كلها، كما أنه لا تجد تناقضاً أو تبايناً كليةً بين مذهب وآخر.

ومن أمثلة الاختلافات الفقهية، التي سيطرت على الساحة العلمية الإسلامية في العصر الأخير، مسألة القبول بالاجتهاد، باعتباره عند الشيعة الجعفرية وغيرها من المذاهب ملزماً وبشروط، بينما الصورة المتوارثة عن بعض المتأخرین من أتباع أئمة المذاهب السنوية، أنهم يلزمون أنفسهم بالرأي القائل: بأن باب الاجتهاد قد أقفل بأئمة الفقه الأربع. وبالتالي والتحقق والتحقيق الدقيق، بحثاً عن دليل لهذا الرأي، فإنه لم يتم ثبوٌت نص مروي، أو حتى نقل عن أي من الأئمة الأعلام بهذا المعنى، فليس هناك ما يثبت إقفال باب الاجتهاد، لذلك فإن إقفاله لدى المتأخرین، هو رأي لاحق لعصر الأئمة المشاهير، وبما أنه مجرد رأي لا دليل عليه، فإنه ليس ملزماً لأي مذهب، بل إنه مخالف لمنهج الإسلام ومردود لأثره السلبي على تطور الفكر الإسلامي، وإشعاعه للجمود الفقهي، والحد من التوسيع العلمي، الذي اشتهر وتميز به الفكر والفقه الإسلامي. ومن هذا المنظور فإن التقليد لا يتنااسب ومستجدات العصر، ولا يوفر للقواعد الفقهية الإسلامية والأصول التشريعية صلاحيتها لكل زمان ولكل مكان.

ونجد من أهم نقط الالتقاء بين الشيعة الإمامية الجعفرية والزيدية مع أئمة المذاهب السنوية المشهورة، دعوتهم إلى جعل باب الاجتهاد مفتوحاً في جميع العصور والأزمنة، كما ثبت أنهم مارسوه عملياً، ودون كلل ولا ملل. يلتزمون به وفق شروط وضوابط أصولية وفقهية معروفة ومقررة في مراجع أصول الفقه الأساسية المعتمدة، سواء منها كتب الشيعة ومراجعها، أو كتب غيرهم ومراجعهم، لما يحتمله الاجتهاد، من فوائد جليلة وأهمها التوسيعة، التي بها جعلت الشريعة الإسلامية حية متحركة نامية قابلة لكل المستجدات، لأن

الإسلام صالح لكل زمان ومكان.

ومن خلال التقسي لمواطن الاستدلال نعرف أن أتباع المذهب الجعفري يرجون كتب أهل البيت الجامدة للحديث النبوى الشريف، وينظرون لكتب الأخرى، كالصحابيين والسنن والمسانيد، وأمثالها من كتب الحديث والرواية نظرة ثانية، وهذا مؤشر واضح أيضاً على أن قضايا الاختلافات الفقهية ومسائلها، ومصادرها موحدة، وعلى حد كبير من التداخل، وعلى مقربة متناهية من التماسك، يسهل التقرير بينها، في إطار رؤية موضوعية بذكاء، وخطط عملية تستهدف ما تستهدفه هذه الاستراتيجية.

فمعضلة العالم الإسلامي اليوم كما يزعم بعضهم معضلة اقتصادية أو سياسية... وإنما هي في الحقيقة معضلة أخلاقية ناتجة عن ضعف الإيمان بالواحد، وعن عدم فهمنا لحقيقة الدين الإسلامي وأبعاده الحضارية والإنسانية؛ لهذا قد حان للمؤمنين بالله وبأنبيائه ورسله الكرام أن يتحاوروا ويلتقوا ويتعاونوا للحد من طغيان الشر ومن فتنه لا تبقي ولا تذر، واليوم ربما قد أدرك الجميع خطورة الدين إذا لم يستخدم في بناء الأوطان وسعادة الإنسان، يمكن أن يصرف في تخريب البلدان ودمار الإنسان.

وعليه أقول لقد أصبح اليوم من الضروري إدراج الحوار الإسلامي (حوار الذات) في المناهج التعليمية والتربوية، وعبر جميع مراحل التعليم من الابتدائي حتى الثانوي مروراً بالتعليم الجامعي وتحويله إلى مادة علمية لها موقعها المميز في مشاريع الدول العربية والإسلامية بمختلف منظماتها وأحزابها، وبدل وضع نظرية (صراع المذاهب الإسلامية) كان من المفترض وخاصة من المؤمنين والمخلصين والعقلاء إلى وضع دراسة علمية تؤسس من خلالها نظرية (تعايش المذاهب الإسلامية)، وفي هذا السياق وتماشياً مع تعاليم القرآن الكريم الذي أعلن في آيات تتلى إلى قيام الساعة أن أصل العلاقات بين الأمم والشعوب والحضارات للتعايش لا للتصادم في قوله تعالى: (يا أيها الناس إنما خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم) وقوله تعالى: (وتتعاونوا على البر والتقوى ولا تتعاونوا على الإثم والعدوان).

وإذا أردنا التعمق في الأسباب التي تنتج عنها الاختلافات المذهبية بين المسلمين، يتحتم استحضار ملخص الواقع الذي عاشه إثر وفاة النبي محمد صلى الله عليه وسلم مباشرة، والذي أفرز مشكلات تمحورت حول خلافته صلى الله عليه وسلم، وصون وحدة الأمة، واستمرار بيعة الدعوة. وإذا كان المسلمون قد نابعوا نشر الدين الإسلامي في المشرق والمغرب، فإنهم بالنسبة لسد فراغ رئاسة الدولة، قد ارتكزوا جمیعاً بما يجمع كلمة المسلمين، لولا أن تطورت المسألة لنزاعات أثيرت حول الخلافة، جعل الوحدة الإسلامية تتعرّض للتمدد. من هنا يمكننا أن نلخص موضوع الخلافات المذهبية بثلاثة أمور: الأمر العقدي والفقهي والسياسي، حيث كان للسياسة الدور الأكبر في هذا الخلاف، فقد مال كل فريق إلى ما ثبت لديه ورجحه من الرأي، بينما كان الإمام علي كرم الله وجهه، قد حسم الخلاف بنفسه وقبل الأمر وبائع الخليفة الأول بأمر بكر الصديق ثم الخليفة الثاني من بعده عمر بن الخطاب، ثم الخليفة الثالث عثمان بن عفان، (رضي الله عنهما جميعاً)، حفاظاً منه على جمع كلمة المسلمين، ووحدتهم، حتى صار الأمر إليه، وقبل إمارة

المؤمنين ليسير بهم نحو نصرة الإسلام وخير المسلمين، على أن ظهور الفتنة بإصرار المطالبين بسرعة القصاص من قتلة عثمان قد قسّـم المسلمين إلى فرق متعارضة، لكن إلى متى سنبقى هكذا؟ وفي ظل عالم متغير متعاون (الاتحاد الأوروبي) وفي ظل الوضعيات والتحولات والسياسات، تفتح علينا حديث المستقبل عن أنفسنا وموقعنا كأمة إسلامية (ذات حضارة ومجد وتاريخ) في هذا العالم المتغير، أو هكذا يفترض علينا. فما هو المستقبل الذي نبحث عنه؟ وهل ترك العالم لنا من مستقبلٍ نبحث عنه فعلاً؟ إن المستقبل لا يمكن التحكم فيه خارج إرادة أية أمة، فكلُّ أمة هي قادرةٌ على التحكم بمستقبلها إذا تحكمت بإرادتها. لذلك فإن المستقبل مفتوحٌ على كلِّ الأمم والحضارات، وبإمكان كلِّ أمة أن تصنع مستقبلها بإرادتها إن هي أرادت وسعت سعيها. والحضاراتُ هي أكثرُ وعيًا بذاتها اليوم. فالمستقبل هو الأمل الذي ينبغي التمسك به والإصرار عليه والتحرك نحوه. وفي إطار التفكير بالمستقبل، يأتي وجوبية وإلزامية التقرير بين المذاهب الإسلامية بقصد النظر إليه برؤية مستقبلية، وفي نطاق إدماجه بمستقبليات الأمة. وهنا نصل إلى ضرورة أن يقترن مفهوم التقرير بمفهوم النهضة والتقدم في الأمة؛ الاقتران الذي يحدد لنا مدخلاً حضارياً في تكوين عملية الفهم لهذه القضية، ولتجديد مناهج النظر حولها، بإخراجها من علم الكلام القديم الذي كرس الفروقات بين الفرق، وعزز الخلافات بين المذاهب، وأصبحت قضيتها البحث عن الفرقة الناجية، إلى علم الكلام الجديد الذي ينطلق من التحديات والمشكلات الجديدة التي تواجه الدين في هذا العصر، وبإخراجها من الفهم التقليدي الجامد الذي ينزع نحو الماضي ويتشبث به، إلى الفهم الذي يعيش واقع العصر وينظر إلى المستقبل ويتمسك به. فالآمة بحاجة إلى نهضة فكرية ترتقي بوعيها الجماعي والعام لإدراك هذه القضية بصورة جادة وفعالة، وتضعها كمبرير في رؤيتها للمستقبل ولموقعها في هذا العالم.

وبقدر خطوات الأمة نحو النهضة والتقدم، بقدر ما تترسخ قناعاتها وتحرك إرادتها تجاه هذه القضية، قضية التقرير. فالقناعة والإرادة هما من أكثر ما تحتاج إليه الأمة في هذا الشأن؛ القناعة من موجبات الذهن، والإرادة من موجبات العمل. والتقرير بحاجة إلى قناعة كبيرة به، وإلى تأكيد هذه القناعة في الآمة، وضرورة أن تتحول هذه القناعة إلى إرادة حقيقة في الدفاع عنها، والعمل من أجلها، وتحمل المسؤوليات في سبيلها، لا أن تكون مجرد تعبير عن رغبة أو مجرّد طموحٍ لا غير.

والتقريب هو من صور العلاقات الفكرية والاجتماعية والإنسانية، ضمن إطار الأمة الواحدة، وكلٌّ صور العلاقات هذه بحاجة إلى قدر من الوعي والنضج الحضاري، لأن المشكلة بالتأكيد ليست في الاختلاف بين المذاهب أو في تعدد مناهجها أو تنوع اتجهاداتها، وإنما المشكلة في طريقة الفهم والنظر لهذا الاختلاف والتعدد والتنوع. وهذا هو جوهر المشكلة المعرفية لهذه القضية. فالاختلاف قد يكون سبباً للنزاع وقد يكون سبباً للرحمة، والتعدد قد يكون سبباً للصدام وقد يكون سبباً للتطور، والتنوع قد يكون سبباً للانقسام وقد يكون سبباً للتجدد والإبداع. فالذي اختلف هنا هو طريقة النظر بين طريقة متأزمة تصور الأمور بشكل معقد متشائم، وبين طريقة ناضجة تصور النظر للأمور بشكل ميسّر متفائل.

والانتقال من تلك الطريقة الأولى في النظر إلى الطريقة الثانية بحاجةٍ إلى انتقال من زمان تلك الرؤية المتأزمة أو المتخلفة إلى زمان الرؤية الناضجة أو المتمحضّرة، وذلك عبر إصلاح مناهج الفكر والنظر وسعي الأمة نحو النهضة والتقدّم.

لذلك فإن ظواهر التعصب والتطرف والكراءة والقطيعة وعدم التسامح، هذه الظواهر وغيرها، لا يمكن معالجتها أو التخلص منها عن طريق مفهوم التقرير فحسب، وإنما أيضًا من خلال مفهوم النهضة والتقدّم في الأمة، فالتقريب قد يعالج تلك الظواهر على مستوى النخبة من العلماء والمفكرين والمصلحين، لكن معالجتها على مستوى الأمة بكل شرائحتها وفئاتها لا يمكن أن يتحقق إلا عبر نهضة فكرية تطور وعي الأمة بهذه القضية وطريقة التعامل معها.

لقد كانت حركة التقرير رسالة العقلاة في الأمة، ودعوة المصلحين فيها، وأملًا لكل العاملين في سبيل التألف والتضامن، ولا شك أنها القضية التي أولى من يدرسها هم الخبراء، وذلك بالانطلاق من قاعدة أساسية هي من صميم أخلاقيات البحث العلمي في المنظور الإسلامي، وهي قاعدة الانطلاق من العلم أو حاكمة العلم في كل أشكال العلاقات الفكرية بين المذاهب الإسلامية، بمعنى ضرورة تكوين العلم بالمذاهب الإسلامية، فالتقريب لا يتأسس أو يترسخ أو يتماسك إلا على أساس العلم. والمشكلة المعرفية في هذا المجال، أن أصحاب كل مذهب حاولوا تكوين معرفة مستقلة بهم عن المذاهب الإسلامية الأخرى، المعرفة التي لا يقول بها أصحاب المذاهب الأخرى في أحيان كثيرة، فالمفاهيم والاعتقادات والقضايا لا تفهم بحسب المعرفة الموجودة في داخل كل مذهب وكما يقول بها أصحابها، حتى لا تصبح القضايا ملتبسة وغامضة ولا تفهم إلا على وجه خاطئ، وذلك نتيجة القطيعة الفكرية بين المذاهب الإسلامية والتعصب الأعمى، والنزاعات الكلامية فيما بينها، ولطبيعة الظروف التاريخية والسياسية التي مرت بها.

إصلاح العلاقات بين المذاهب الإسلامية لا يتحقق إلا بإصلاح المعرفة بين المذاهب، المعرفة التي لا تعني بالضرورة الاتفاق معها، وإنما الاتفاق والاختلاف الشرط فيهما أن يكون على أساس العلم أولاً، والحق في الاجتهد ثانياً، وشرعية التعدد والاختلاف ثالثاً. وهنا لا بد أن يتسع العلماء والطلاب في دراسة مختلف المذاهب دون ان يقتصر على مذهب واحد وأن تتعدد اللقاءات العلمية والفقهية بين العلماء من المذاهب المختلفة.

ولكي تنجح عملية التقارب بين الإخوة من المذاهب المختلفة فلا بد أن تكف الأفلام والألسن عن لغة التشنب والاستفزاز والاستخفاف والتحامل مما يعقد الأمور ويزيد التفور والتباعد.

ولا يخفى على أحد أن هناك من المؤلفات الحديثة والقديمة اتخذت من الأحداث المؤسفة والفتنة حصلت في تاريخ أمتنا وجعلوها قاعدة لإشعال الفتنة بين المسلمين بعضهم ببعض حتى استحل المسلم دم أخيه المسلم والعياذ بالله. ناسين ما قال رسول الله ﷺ (صلى الله عليه وآله وسلم) بالحرف الواحد في خطبة الوداع: " يا أيها الناس إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى يوم تلقون ربكم عز وجل كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا ألا هل بلغت قالوا نعم قال اللهم اشهد ثم قال ألا لا ترجعوا

بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض ". وأما ما وقع من خلاف بين المسلمين في القرن الأول وما نجم عنه من ظهور الفرق فيجب أن يدرس في إطار البحث العلمي والعبرة التاريخية، ولا يسمح بامتداده إلى حاضر المسلمين ومستقبلهم، بل يترك أمره إلى الله عز وجل. قال تعالى: ( إِنَّكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ . لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَا كَمُّ مَا كَسَبَتْ ) سورة البقرة 141.

وخلالمة القول: أن الحوار الإسلامي الإسلامي يحتاج إلى المزيد من الجهد والاجتهاد لإقناع بعضنا ببعض بأهميته وفائدته وضرورته الدنيوية والدينية على حد سواء، والحذر من دور الغرب في وضع بذور الفتنة والخلاف بين جسد الأمة الإسلامية ، نظرا لما ترزا به النزعة التبشيرية الغربية من عدائية وتعال تجاه كل ما هو إسلامي؛ أدى من وراء هذا غزو معظم البلاد الإسلامية والعربية في العصر الحديث..! فالأمر جد خطير فإذا لم نتحاور ونتعايش ونتعاون فيما بيننا على الخير والصلاح في إعمار أرض الله بما ينفع خلقه وعياله، وكلنا عيال الله وسيد الخلق خادمه، مما أحوجنا نحن كحاليات إسلامية بدول أمريكا اللاتينية والبحر الكاريبي إلى المزيد من التعاون والتفاهم فيما بيننا، وأن تكون دعاء حوار وسلام وتعايش لا دعاء كراهية وفتنة وتناحر، بغية أن نظهر للآخر غير المسلم بأننا أمة إسلامية واحدة متعاونة متماسكة فيما بينها، وهذا ينعكس إيجابيا بين الدول الإسلامية والعربية ودول أمريكا اللاتينية، وتطويره وتفعيله ونجاحه متوقف على تعاون الجمعيات والهيئات الإسلامية بعضها مع بعض، وتناسي خلافاتها المذهبية الضيقة سيعطي - مما لا يدع مجالا للشك ؟ ومضات مشرقة طيبة تنعكس إيجابا في بيان حقيقة الإسلام وأهدافه الإنسانية النبيلة في هذه البلدان، مما أحوجنا اليوم أن نطبق هذه القاعدة الذهبية الإسلامية المعروفة يجب أن نتعاون فيما اتفقنا عليه، وأن يعذر بعضنا البعض فيما اختلفنا عليه، وما نختلف عليه نقطة في بحر من النقاط المتفق عليها. نحن أمة الإسلام أمة كرمها الله سبحانه وتعالى بقرآن ونبيه ودهيم، نسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعلنا وإياكم من الهدادين المهتدين غير المضلين ولا المضللين، اللهم آمين.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكلم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.